

تفسير قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

..... ثم أعاد الكلام فقال: { فَكَذَّبُوهُ } لأنه ذكر أولاً أنهم كذبوه تكذيباً شيئاً؛ حيث قالوا له: { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي صَلَالٍ مُّبِينٍ } فلما أعاد عليهم الكلام، وبين لهم أن بعثه إليهم لا يستعجب منه، وأنه لصلاحهم؛ ليخوفهم من معاصي الله، وليتقوّا الله ^{فَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} عادوا إلى التكذيب، وقال الله هنا: { فَكَذَّبُوهُ } عادوا إلى تكذيبهم الأول. والظاهر أنه قال: { فَكَذَّبُوهُ } ولم يذكر شناعة قولهم، لأنهم تماذوا على مثل قولهم الأول من التكذيب. { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي صَلَالٍ مُّبِينٍ } { فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ } : يعني لما كذبوه. في الكلام اختصار صير على أذاهم تسمعه وخمسين سنة وهو يدعوهم إلى الإسلام صابراً على ما يلقى منهم من العذاب حتى إن ربه تعالى قنطه منهم. وبين له أنه لا يؤمن منهم أحد أبداً كما قال: { أَوْجَيَ إِلَى نُوحَ اللَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ أَمَنَ } فتبقن نوح أنه لن يرجي منهم خيراً، وإنما فيهم الشر وتعذيب نوح وإهانته بما يتألم منه من السوء، وأنهم كلهم شر لا يرجي منهم خيراً أبداً ولا من نسلهم. بعد أن مكتفهم هذا الزمان الطويل الذي يبني الله في العنكبوت في قوله: { قَلِيلٌ فِيهِمْ أَفَ سَيِّءَ إِلَّا حَمْسِينَ عَامًا } . لما أعلمه الله أنهم لا يرجي لهم صلاح، ولا يرجي لهم خيراً، وأنه لا يؤمن منهم ولا من ذرياتهم أحد. لما حصل هذا اليأس عند ذلك دعا عليهم بقوله: { لَا يَنْدَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } { دَيَّارًا } : أي داخل دار أو عاصمة بيت فأهلهم كلهم ثم قال: { إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضْلِلُوكُمْ وَلَا يَلْدُوْكُمْ إِلَّا فَاجْرًا كَفَارًا } . وإنما قال نوح { وَلَا يَلْدُوْكُمْ إِلَّا فَاجْرًا كَفَارًا } : لأن ربه أخبره بأنهم لا يؤمنون منهم أحد في قوله في سورة هود: { أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ أَمَنَ } . فلما دعا عليهم نوح وبين الله دعاءه عليهم في آيات كثيرة { قَدَّعَ رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْصِرْ } { فَاجْتَيْنَاهُ وَاهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } { وَانْصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا يَا يَا نَسِيْنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ } . لما مكتفهم هذا الزمان الطويل وهم يكذبونه وبؤزونه، وكانت امرأته خبيثة تدالم على من أسلم من القليلين الذين أسلموا معه؛ فيعدبونهم وبهينونهم -أهلكها الله معهم وصارت مع الكافرين، ودخلت النار، والعياذ بالله. وضربيها الله مثلاً مع امرأة لوط لم يكُنْ في صحية أفضلي الناس، وخيار الأنبياء، ولا يكون في نفسه طيباً فلا ينتفع بتلك الصحبة الكريمة لخيث نفسه قال: { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِمْرَأَهُ نُوحَ وَإِمْرَأَهُ لُوطٍ كَانَا تَحْتَ عَبْدَيْنَ مِنْ عَبَّارَاتِ صَالِحِيْنَ فَخَاتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيْنَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقَبِيلَ اذْخَالَ الْأَنْارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ } . ومعنى "خاتاهما": أي بالكفر وإطلاع الكفار على أسرارهما، وليس المراد أنهما خاتماً خيانة الرزنا كما توهّمه بعض الناس، وأن امرأة نوح خاتمه فزنت، واستدلوا بأن الله لما قال نوح { رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } قالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } : فهذا غلط بل غلط عظيم فاحش. والمحققون من أهل العلم أن الله أكرم مناصب الأنبياء عليهم صلوات الله وسلماته عليهم، وظهر فرشهم فلم تزن امرأة نبيٍّ فقط. والولد الكافر الذي أغرق هو ابن نوح لاشك فيه؛ لأن الله وهو أصدق من يقول صرح بأنه ابنه؛ حيث قال: { وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَغْرِبٍ يَا بُنْيَ اِزْكُبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } . وقول الله له: { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } يعني بحذف الصفة من أهلك الموعود بمحاجتهم وإركابهم في السفينة لقوله: لنجنيك وأهلك؛ لأنه فارق دينكم، وكان كافراً. فلما تطاول الزمن على نوح وهو يدعوهم فلا يزدهم دعاءه إلا فراراً وبعداً عن الحق - دعا عليهم، فأجاب الله دعوته فأرسل السماء مدراراً، وفجر عيون الأرض فاللتقي الماء من أعلى وأسفل حتى صار طوفاناً غطى على الجبال. والدليل على أنه عمر الجبال أن نوهاً لما قال لولده: { يَا بُنْيَ اِزْكُبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } . فقال الولد: { سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء } أجابه نوح فقال: { لَا عَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ } فدل على أنه ليس هناك معتصم في الجبال، ولذا قال تعالى: { قَدَّعَ رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْصِرْ قَفَّحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَقَاءِ مُنْهَمِرٍ وَجَرَرْنَا الْأَرْضَ عَيْنَوْنَا قَالَتِي الْمَاءُ عَلَى أَمْرِ قَدْ قُدِرَ } فصار طوفاناً جارفاً أهلك جميع من على وجه الأرض من كل ما هو حي إلا من كان في تلك السفينة. كما قال تعالى: { فَاجْتَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ } . فأمر الله نبيه نوح بأن يجعل تلك السفينة و يجعلها من نجارة، وكان ينحرها والأرض يبس، وهم يضحكون منه ويسخرون ويقولون: كنت نبياً فصرت نحراً، وهو يقول لهم: { إِنْ سَسْرُوا مِنَّا فَإِنَّا سَسْرُونَ كَمَا سَسَرُونَ فَسَسْوَقَ تَعَلَّمُونَ } . فلما قرب الوعد المحدد لإهلاكهم قيل لنوح اركب في السفينة واحمل فيها أهلك، { وَمَنْ أَمَنَ } معك، ثم قال: { وَمَا أَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } وأمر أن يأخذ من كل شيء من جميع الحيوانات زوجين؛ أي ذكراً وأنثى، لأن جميع من على وجه الأرض سيهلكه الطوفان، ولن يبقى إلا من في تلك السفينة. فيكون كل جنس من أنواع الحيوانات موجود معه منه ذكر وأنثى ليتناضل ذلك الذكر بتلك الأنثى وينشا منها ذلك النوع من أنواع الحيوانات كما يأتي في قوله: { قُلْنَا أَحْمِلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ أَشْتَنِ } وفي القراءة الأخرى: "من كل زوجين اثنين". أي ذكراً وأنثى ليقع منها التناضل، وينتشر منها ذلك النوع؛ لأن من على وجه الأرض سيهلكه ذلك الطوفان، وذلك يبين أن ذنوببني آدم قد يهلك الله بها الجميع حتى الحيوانات. قال بعض العلماء: قد تهلك الحباري في وكرها، والغير في جره بذنوببني آدم.